بغداد الحاضرة

تتمة ما سبق

(٣)

تجارتها

وكانت محطّ الرحال وكعبة يحجّ اليها سالك الحزن والسهل
فذو المال يأتيها ليكثر ماله وذو الفضل يأتيها لينبع في الفضل

لو نظرنا نظرة الى ماضي بغداد وتصفحنا تاريخها التجاري لوجدناهُ حافلاً باخر ادث التجارية الخطيرة التي امتازت بها دار السلام وقد بقي اثر لذلك الماضي الى اليوم يدلنا على سعة ثروتها واتساع تجارتها الصادرة والواردة في اول ايامها . فقد تبوأت التجارة بينها وبين الصين والهند وفارس والشام والجزيرة ومصر ولا تزال بقية باقية لها وهي لا تبلغ عشر ما كانت عليهِ في عصرها العباسي المجيد اذ كانت ام البلاد الشرقية وعروسها

وتجارة بغداد اليوم متأخرة كالعلم والعمران والزراعة التي فيها فان هذه كلها تكاد تفقد في انحاء العراق العربي كلهِ . ومن المعلوم ان التجارة تكثر حيث يكثر العمران و ينتشر العدل والامان واما البلاد التي اخربها الجهل وشاع فيها الفساد فلا شأن فيها للتجارة ولاسيما دار السلام فانها من يوم سقطت بيد الاعجام تكثر فيها الفتن والحروب وتتداولها ايدي حكام مختلفين لا يهمهم شقاء البلاد وسعادتها

ولا أدل على حياة البلاد من التجارة تدخلها وتخرج منها فلو قدرت تجارة بغداد في ايام السلم لم تجاوز مليونين من الليرات فتستطيع بهذا ان تستدل على تأخر البلاد الكسروية التي قيل انها اخصب البلاد واهمها موقعاً

ولما كانت البلاد بعيدة وقليلة المواصلات كان ما يرسل اليها من الغرب قليلاً وما يصدر منها اقل فقد صدر منها الى اوربا وامريكا سنة ١٩٠٣ ما تبلغ قيمتهُ ٢٩٥ ٢٧ ١١١ فرنكاً والى الهند والصين وجاوه ما قيمتهُ ٤٩٠ ٤٣٦ فرنكاً فلو جمعت هذه الى تلك كانت ٢٨٧ ٧٨٥ ٥ فرنكاً . هذا ما يخرج منها الى البلاد التي تتصل تجارتها بها أهم اتصال واما ما يردها من الصين والهند وجاوه والخليج الفارسي فقيمتهُ ٣٢٥ ٥٥٥ ٧ فرنكاً وكان الوارد اليها من امريكا واوربا ٤٦٩ ٧٠٤ فرنكات واذا أضيفت الى ما قبلها كانت

٠٣٩ ٧٢٥ ٢٦ فرنكاً فالواردات تزيد على الصادرات بنصف مليون جنيه تقريباً

واذا رأيت المال الذي يدخل صندوق الحكومة من الجمرك عمت المقدار الذي تكسبهُ الحكومة من التجارة فقد كانت واردات المكوس سنة ١٣٢٦ مالية اقل من ١٤٠٠٠٠٠٠ قرش صحيح عثماني اي اربعة ملايين فرنك و ٣٠٢٥٠ وفي سنة ١٣٢٧ زادت الضرائب الى ١١ بالمائة فبلغت الواردات ٢٦٠٠٠٠٠٠٠ تساوي ستة ملايين ونصف من الفرنكات والجمرك البصرة من الوارد ما يساوي ٣٥٠٠٠٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة عثمانية ودخل ميناءها ٢٥ سفينة تجارية محمولها ٣٠٠٢٣٤ طناً ما بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٢

وانواع تجارة بغداد كثيرة فمن صادراتها الصوف بلغ ثمن ما صدر منهُ سنة ١٩٠٢ ١٠٦٣٦٦٠٠ فرنك وثمن المن منهُ يتراوح بين ١٦ و٢٥ قرشاً والمن ثلاث ليبرات انكليزية ونصف . والتمر يستبضع الى مصر والشام والاستانة واوربا وذهب منهُ في السنة المذكورة ما يقدر باكثر من ٢٢٣٨٥٠٠ فرنكاً . والرز والبر والشعير والذرة والسمسم والعدس والدخن يرسل الى بلاد العرب واميركا ويكون ثمنهُ ٢٥٤٠٩٥٠ فرنكاً . والسمن يزيد ثمنهُ في كثير من السنين على ٢٠٩٩٢٥ فرنكاً وهو فيها رخيص مبذل . والعفص يبعث الى اميركا واوربا ويقدر بلغ ٢٧٢٩٢٧٥ فرنكاً على وجه التقريب . والسوس ارسل منهُ في السنة المتقدمة ١٨٩٤ كيساً يبعث بلغ ٣٩٥٠٠ فرنك . والقوز والخشب والوبر والاليون والزفت والجلود وبلغ ثمن صادرها ٩٠٦٦٠٠ فرنك واشياء اخرى كالبسط والحرير وغيره . والخيل وغيره وترسل الخيل الى الهند وثمن الحصان في بعبي من ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ فرنك يسافر اليها كل سنة ما يزيد على ٦٠٠٠ حصان

وواردانها كثيرة من اوربا والهند والصين وفارس والشام ومصر وخليج فارس وجاوه كالخشب والطرز والكافور والشمع والدارصيني والفحم الحجري والقرنفل والزنجبيل والبن والنيل والزاج والغزل والعقاقير والحناء والمر والصفيح والرصاص والفولاذ والفضة والقصدير والحبال والصابون والسكر وهذا يأتيها من مصر ايضاً ومن بلجيكة والمصري اقل ثمناً واقل استعمالاً . والخشب الجوزي والصندل واشياء كثيرة . والذي يردها من اوربا واميركا لا يقل عما يردها من هذه الجهات . فالسكريات بلغت ٢٦٠٩٧٥ فرنكاً . والشمع بلغ ثمنهُ ١٨٧٧٢٥ فرنكاً والطباق والملاط (الاسمنت) بلغ ١٨٦٠٠٠ فرنك ومن بضائع الغرب الفحم والمعادن والاصباغ والاقمشة والزجاج والنبوس بجميع انواعهِ واشكالهِ واغلب الالات الحديدية والاخشاب وماكنات الماء والخياطة . وبلغ ثمن الماكنات المائية

٥٠٠ ٦٣٣ ٢ فرنك والشقب الكبريت والمياه المعدنية والورق والمآكل والزيت الحجري ما يساوي ٦٥٠ ٦٩٣ فرنكاً والصابون والسكر والشاي واشياء اخرى شهيرة

فمن النظر في هذه الارقام يعرف ما لبغداد من الاهمية التجارية — وقد كانت في ايام العباسيين اهم مدينة تجارية في الشرق والغرب فهي منبع التجارة كما هي منبع العلم وكان فيها ذوو الملايين من التجار الاغنياء الذين لهم شهرة واسعة في تلك العصور

زراعتها وريها

سر في اي جانب من جوانب العراق واقصد اي سهل من سهوله فانك لا تجد الا ارضاً مواتاً ذات تربة خصبة — ترى ارضاً خالية لا نبات فيها ولا ماء تأوي اليها الذئاب والثعالب . تراها زراعة صالحة لزراعة غالب النباتات التي في بلاد الارض ولكنك تجدها بيداء مجدبة لا عشب فيها ولا كلاء . ولا تتوغل في الصحارى البعيدة بل اذهب الى ضفاف دجلة والفرات لعلك تجد نباتاً وشجراً واقواماً فقراء . درَّ درُّ العدل ماذا فعل في ايام الاكاسرة والعباسيين ويح لنا من الفساد والتخريب . ان بؤساً وفقراً مدفعاً في جزيرة آرام بلاد بابل والكلدان ذات الجنان المعلقة والرياض الغناء

يضيق صدري اذا تذكرت هذه السهول — وما يقاسي اهلها من الشقاء والعناء في حياتهم — بلادهم واسعة ومياههم فائضة غزيرة تجري ضياعاً الى بحر فارس وهم فقراء جياع ولسان حالهم ينشد

امياه دجلة والفرات تريثي ان العراق كما رأيت جديبُ
سيلي على سهل فان بلادنا عطشى اليك لها جوى ووجيبُ

يقول ولكوكس ما معناه ان ارض ما بين النهرين صالحة لزراعة كل النباتات التي تزرع في جهات خط الاستواء ويمكن زراعة القطن فيها في الصيف . وهواء ما بين النهرين موافق لزراعة قصب السكر وحرارة الاقليم كافية لتربية القطن (والاهالي اليوم يزرعون القطن قليلاً ولا يهتمون بزراعته كثيراً ولو اهتموا لكثر عندهم ونما نموًّا جيداً) وذكر ان في تربة البلاد مواد كثيرة نافعة للزراعة تغلب فيها المركبات الكلسية والحوارية وفيها عناصر الازوت والحامض الفصفوري والبوتاس

وذكر غيره ان تربة العراق تغل ٤٠ ضعف ولكنه نقل عن بعض مؤرخي القدماء انها كانت تغل من ٢٠٠ الى ٣٠٠ ضعف

وذكر ان سهول ما بين النهرين التي يمكن سقيها بالري مساحتها ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ فدان

فهي بمقدار ما يروى النيل مرتين ومعدل طول هذه الجزيرة ٧٠٠ كيلومتر وعرضها يختلف بين ١٠ كيلومترات الى ١٠٠ كيلومتر. يسقيها الفرات ودجلة وروافدهما وهذه الجزيرة تشبه المثلث لها زاويتان شماليتان من هيت و بلد وزاوية جنوبية عند القرنة وطول دجلة من بلد الى البحر ١٠٤٠ كيلومتراً تقريباً وطول الفرات من هيت الى القرنة ٩٣٠ كيلومتراً تقريباً. ومن القرنة يتألف شط العرب من دجلة والفرات ثم ينتهي الى نهر قارون لتجتمع ثلاثة انهر تصب في خليج فارس. وطول شط العرب من القرنة الى البحر ١٦٠ ك وعرض الفرات من ٢٥٠ الى ٤٥٠ متراً وعمقهُ ثلاثة امتار ونصف وتختلف قوة انحداره ومعدلها متر واحد في الثانية. وفي موسم الفيضان ترتفع المياه الى ٥٠ سنتيمتراً. واما دجلة فلها عرض يختلف فقد يبلغ في بعض الامكنة في شمالي بغداد اربعة كيلومترات وقد يكون ٥٠ متراً في امكنة اخرى ومعدل عرضها من ٢٠٠ الى ٤٠٠ متر وعمقها ستة امتار وسرعتها كسرعة ماء الفرات وفي مواسم الفيضان ترتفع المياه الى ٣٥ سنتيمتراً فوق ضفتيها وفيضان النيل متران ونصف

اما كمية مياه دجلة في الثانية فيبلغ معظمها في نيسان الى ٤٠٠٠ متر مكعب وتهبط في شهري تشرين وايلول الى ٢٥٠ متراً والنهران يفيضان في وقت ويغيضان في وقت واحد (هذا ما يقول ولكوكس ولكن الذي نعهده انهما يفيضان في اوقات مختلفة وفي قليل من السنين يفيضان في وقت واحد) ويختلط بمياه النهرين كربونات الكلس والمغنيسيا ومواد اخرى تزيد على ما في مياه النيل من المواد المختلطة بها واذا كانت الكمية التي يصبها الفرات ٣٠٠ متر مكعب ودجلة ٢٥٠ متراً مكعباً في كل ثانية فمجموعها ٥٥٠ متراً مكعباً. فالظاهر ان هذه المياه لا يمكنها ان تروي في فصل الصيف اكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ فدان. واما في مواسم الفيضان يوم تكون كمية المائين ٦٥٠٠ متر مكعب في الثانية فيمكنها ان يسقيا ٣٢٠٠٠٠٠٠ فدان. فعلى هذا ان النهرين لا يكفيان لسقي الاراضي الصالحة للزراعة في فصل الصيف (ولاسيما في الايام التي يسميها العراقيون ايام الصيهود اذ تنضب المياه ولا يستطيع الفلاح ان يروي اراضيهُ الاَّ بجهد هذا في هذه الايام والزراعة متأخرة فكيف لو عمرت الارض وشقت الترع على ما رسم ولكوكس قبل لا يمكنها ان يرويا ثلث هذه المساحة كما يجري في مصر في مواسم النضوب. ويمكن استدراك هذا الامر ببناء خزانات كخزانات مصر فتكون المياه اذ ذاك تكفي ١٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان وليس هذا مبنياً على الحدس والظن وانما هو حقيقة راهنة. ففي العهد السابق كان اهل هذه البلاد يحتفرون ترعاً و يخزنون المياه حتى صارت بلادهم جنانًا ناضرة كما ذكر المؤرخون منهم بليني واحيان مرقلان وابن

سيرايبون - اما مياه الامطار فتنزل في العراق ايام الشتاء وهو من تشرين الثاني الى نيسان يهبط المطر في ١٨ يوماً سنةً وكميتهُ ٣٠٣ ميليمترات وفي ايام الصيف واول فصل في ايار وآخرهُ تشرين الاول ومن المطر فيهِ يوم واحد وكميتهُ ٩ ميليمترات فمجموع كمية المطر في ايام السنة ١٩ يوماً وكمية مياهها ٣٠٢ من الميليمترات ولا يكاد هذا كلهُ يكفي لمتقي واحد في بلاد ما بين النهرين

اهلها

تبلغ نفوس ولايتي البصرة وبغداد ٢٠٠٠٠٠٠ وفي بغداد نفسها من السكان الذكور ٦٧٣٦٣ من المسلمين و ٢٠٧٣٦ من غيرهم فمجموعهم ٨٩٠٩٩ . هذا على ما ذكر في التقويم الذي قومهُ المرحوم ناظم باشا سنة ١٩١٢ وفي الولاية كلها من ١٢٥ الى ١٣٠ الف نفس منهم ٣٦٠٠٠ من اليهود و ٦٠٠٠ من المسيحيين و ٨٠٠ من اللاتين وذكر بعضهم ان في نفس بغداد الى ٥٠٠٠٠٠ ٢٢ من المسلمين وهذا غير صحيح . والاحصاء المتقدم هو آخر احصاء على ما اعلم . وفي كتب الجغرافيا التركية ان نفوس ولاية بغداد تقدر بمبلغ ١٢٠٠ الف ونفوس البصرة تقدر بمبلغ ٨٠٠ الف وكل هذا على وجه التقريب فان الحكومة لا تعتمد على احصائها وتعدادها . وما نشرهُ ناظم باشا اقرب الى الصحة وابعد عن التخمين وكانت نفوس بغداد في ايام المرحوم مدحت باشا ٦٣٢٧٣ منهم ٥٢٦٨٩ مسلمون والباقون غيرهم . ولو قسنا هذا الاحصاء باحصاء ناظم باشا لوجدنا الزيادة في نفوس المسلمين اقل من غيرهم مع انهم اكثر اهل البلد عدداً وما ذلك الاّ لان المسلمين خصوا بالجندية والزواج يقل فيهم وعدم الاهتمام بمسائل الصحة جعل نموهم يتناقص . ولو قسنا هذا بما كان لبغداد من النفوس في العصر العباسي لوجدنا فرقاً كبيراً فقد كان يسكنها اكثر من مليوني نفس في تلك الايام وكيف يبقى اهل بغداد كثيرين وقد حدثت فيهم حوادث كادت تستأصلهم وتفني خضراءهم وغضراءهم في العصر العباسي وبعدهُ فقد قتل هولاكو فيها اكثر من مليون من اهلها وقتل تيمور كثيرين منهم وامر عسكرهُ ان يأتي كل منهم برأسين من اهلها فقتلوا النساء والرجال وقتل من المسلمين ٩٠٠٠٠ غير المتعددين الآخرين . ولما دخلها السلطان مراد انزع أمعن في اهلها قتلاً لا خلاف بشروط التسليم . فكيف لا تقل نفوسها ولا تفنى رجالها بعد هذا

عاداتهم

العادات التي تسودهم ابناء دار السلام لا تخالف عادات المصريين الاّ يسيراً . فرجالهم ونساؤهم لكل منهم عادات يراعون في بعضها جانب الدين والتعبد وقد لا تتعلق العادة

بطرق من الدين فيمشون بها كما تطيبهُ اذواقهم ويناسب نشأتهم وسواء كانت تلك العادة مستحسنة او مستهجنة فانهم استحسنوها وتعودوها وكذلك كل قوم يألفون ما تعودوهُ غير ان الامم المدنية لا تحبها العادات المصطلح عليها ان لم يؤيدها دين او مصلحة او قومية على ان الاديان لا تتعرض لما تجري بهِ العادة بل تبحث عن كل ما يدخل في قولنا دين وتدين وشريعة وتشريع واما العادات فهي اصطلاحات احدثها القوم قبل الدين او بعدهُ وليس عادات البغداديين سائرة على مثال واحد بل هي تختلف باختلاف المذاهب والاديان فكثير من عادات اليهود غير عادات النصارى والمسلمين وكذا عادات المسلمين تخالف غيرها . وكانوا منذ عهد غير بعيد متخالفين في العادات كتخالفهم في الملل وفي السنين الاخيرة اخذت العداوات الدينية والاحن التعصبية تزول من الصدور فتقارب القوم وتآلفوا قليلاً

واهل بغداد ككثير من الشرقيين مربو التقليد يحبون التشبه بالقوي في جميع مظاهره الا في امر يظنونهُ مخالفاً لدينهم فانهم بطاء في تركهِ شديدو العصمة لهُ . وكانوا قبل عشر سنين يتميزون في اشكالهم وهنداهم فلبسة اليهودي غير لبسة المسلم والنصراني لبسة تخالفها وكان المسلمون يلبسون العمائم العربية فكانوا اثراً من آثار العباسيين ثم اخذوا يلبسون (العقال) و (الكشيده) و (السربوش) والعمائم التركية واشتركوا في الطربوش على خلاف في المذاهب لانهُ اللبس الرسمي . ولهم عادات لا تخلو منها امة في الدنيا حتى الامم المدنية كالتشاؤم والطيرة . فانهم يتشاءمون من اشياء كثيرة . فنفيق الغراب في دار احد قطينها مسافر يدل على بعد سفره واليأس من ايابهِ . ونواح البوم يدل على ميت يموت في الدار ونباح الكلاب من غير اغراء آية على حدوث شر قريب . وعواء بنات آوى آية الجدب والقحط الذي يحدث في السنة التي غير هذا من التشاؤم . واكثر ما تؤثر هذه الآراء في نسائهم . والعامة يعتقدون اقتدار المرتى من الصالحين على النفع والضر فيستغيثون باولهم البالية ويتبركون بزيارتها ويثبتون لاوليائهم كرامات خرافية اشبه بميثولوجيا اليونان وسخافات اهل منغوليا واواسط افريقية . واكثر شيوع هذه الخرافات في الهند ومصر والشام واطراف جزيرة العرب ولا تجد لها اثراً في قلب الجزيرة وليست هذه العقيدة مقصورة على اموتى الاولياء بل هي تتعداهم الى الجماد من الاحجار والاشجار والمعادن . ففي جوار بغداد مسجد لجنيد بن محمد فيهِ ثلاثة جلاميد سود يزعمون انها تشفي الامراض والآلام فمن وضعها على محل الألم زال وهذه النخلة تشبه نخلة العامة في مصر

ازاء عين ان الصخرة التي في جامع عمرو بن العاص تشفي وان الاسطوانة التي في مسجد الحسين تشفي ومثل هذا كثير في مصر ولهم اعتقاد بالشجر كاعتقاد عامة مصر بالشجرة التي في الروضة المعروفة عندهم بالمنصورة فيشيرون بها و يذهبون اليها يدعونها و يستغيثون بها وهذه هي الوثنية التي جاء الدين لقضاء عليها - ولو ان الحكومة زجرت العامة عن هذه الخرافات لاحسنت كل الاحسان - ولي عودة الى شرح خرافات العامة في مصر انشرها في هذه المجلة ان وسعت لي مجالاً

فمن هذا نعلم ان العامة في بلاد المسلمين متقاربون في العادات والاوهام الفاسدة ولو توسعنا في شرح مذاهبهم في الجماد والمقابر والجن لافضى ذلك الى تطويل ليس هذا موقعهُ · ولنساء بغداد عادات تعودنها · فنها كثرة الحياء وشدة التحجب · فهنَّ يسترن جميع اعضائهنَّ و يضربن بالبراقع الكثيفة على وجوههن ولا يلبسن الثياب الضيقة التي تمثل اعضاءهن و يلبسنَ العباآت الطويلة لتحجبن ما طال منها على الارض شبراً وشبرين · ويكثرن زينتهن كل الكتمان ولا يتبرجن · والجهل فاش بينهن فلا علم ولا تعليم والفتاة تنشأ في بيت ابيها جاهلة اسيرة لا شأن لها كسائر نساء البلاد الشرقية · ولهنَّ عادات كالمصريات في اجتماعهنَّ ايام الاعياد في المقابر و يخرجن اليها عصر كل خميس يندبن الموتى ويبكين على قبورهم و يرثينهم بما يشيع بينهنَّ من المراثي التي ينظمنها بلغتهن وهي كثيرة مستفيضة على السنتهنَّ · ويجتمعن في بيت الميت سبعة ايام وسبع ليالٍ و يلطمن وجوههنَّ وصدورهنَّ ويعولن اعوالاً شاجياً · ويمزقن جيوبهنَّ و يلبسن الحداد شهوراً وسنين بحسب ما يبلغ حبهنَّ للميت و يقصرن شعورهنَّ و يكسرن دماجهنَّ و يحثين التراب على رؤوسهنَّ و يحشين شعورهنَّ بالطين بدل الحناء ولا يتبعن الجنائز كما تفعل نساء مصر و يعتقدن بالخرافات ما تعتقد نساء مصر من الاغترار بالدجالين الذين يدعون القدرة على انتاج العاقر واجتلاب المحبة بالكتابات والسحر وارجاع ازواجهنَّ وابنائهنَّ من السفر البعيد · و يطرقن بالحصى و يضربن الرمل و يتفألن و يعلقن الكتابات بصدورهنَّ وزنودهن وشعورهنَّ و يعلقنها باطفالهنَّ · و يكثرن زيارة الاولياء و ينذرن لهم النذور و يتخذن الشمع والسرج و يعلقن ابواب مساجدهم بالحناء اشارة الى قضاء حاجاتهنَّ و يربطن الخيوط كما هو معروف في مصر · ولهن عادات عجيبة يطول ذكرها

القاهرة (محمد الهاشمي البغدادي)